علم الانسان

العقل ومقياسهُ في تمييز الاجناس

ما هو العقل وما هو محكهُ ومقياسهُ ؟ يرى الباحث لاول وهلة ان العقل والجسد يختلفان في امر جوهري فان العقل مرن يسهل انفعالهُ وتغيرهُ واما الجسد فيتخذ صورة معلومة وشكلاً خاصًّا يرثهُ الولد من والديهِ و يورثهُ لاولادهِ . فهل نعود الى المذهب القديم القائل ان العقل او النفس شيء غريب عن الجسد وانها حشرت فيهِ حشراً واجلّت فيهِ قسراً على حدّ قول ابن سينا في قصيدتهِ المشهورة

هبطت اليك من المحلّ الارفعِ ... ورقاء ذات تعزّز وتمنعِ
وصلت على كره اليك وربما ... كرهت فراقك وهي ذات تفجّعِ

الى ان قال

وتظلّ ساجعة على الدمن التي ... درست بكرار الرياح الاربعِ
اذ عاقها الشرك الكثيف وصدّها ... قفص عن الاوج الفسيح الاربعِ
فلأي شيء اهبطت من شاهق ... سام الى قعر الحضيض الاوضعِ

على ان هذا المذهب ليس من العلم في شيء فان العلم يقضي بتصوّر النفس (او العقل) والجسم على اتفاق تامّ وبانهما يدٌ واحدة في عمل الحياة وعرضة لتأثير واحد مشترك بينهما . وبناء على ذلك ينبغي افتراض كون الوراثة تتناولهما كليهما وكون نواميسها تنمّي عليهما معاً . وبقدر ما يكون العقل ذا قابلية للانطباع والانفعال يكون الجسد ايضاً

الاّ ان الدماغ وهو مركز العقل واكثر اجزاء الجسد قابلية للانفعال هو ايضاً ابعدها منالا عن عين الباحث . فانهُ موضوع في صندوق من العظم الصلب فلا يُرى الاّ بعد الممات حينما يكون بلا عمل . وعليهِ لا يمكن اتخاذهُ مقياساً صادقاً للصفات الموروثة . فقد زعم البعض ان حجم الدماغ احد مميزات الاجناس بعضها عن بعض ولكن جمهور العلماء ليسوا على هذا الرأي . نعم ان متوسط حجم الدماغ في الابيض اكثر بقليل من متوسطهِ في البوشمان سكان استراليا الاصليين مثلاً ولكنك لا تستطيع في حساب مثل هذا ان تغضي عمّا بين الفريقين من اختلاف الاجسام وعن ان الجسم الكبير يصحبهُ على الغالب رأس كبير . وزد على ذلك ان الاوربي ربما كان اسبق الى المعارضة في هذه المقابلة لانهُ يكره ان يعلم في

نهايتها ان حجم الدماغ في بعض جماجم الانسان الوحشي المعروف باسم نياندرتل هو اعظم منهُ في نوابغ الشعراء والسياسيين المحدثين بين الاوربيين

فواضح من ذلك ان مقياس حجم الدماغ ليس بالمقياس الذي يعوّل عليهِ في تمييز الاجناس. ولا يعوّل كذلك على شكل تلافيفهِ وعددها . فقد تتصل بها الى معرفة الفرق بين الابله وغيرهِ ولكنها لا ترينا الفرق بين الجاهل والعالم او الغبي والنابغة

وقد خيل الى قوم ان حدة المشاعر الخمس قد تكون من مميزات الاجناس معتمدين على ما نقل السياح عن حدة البصر بين بعض القبائل المتوحشة التي تعتمد في رزقها على الصيد والقنص . وتكررت هذه الانباء عن حدة بصر بعض القبائل النهجية وتمهم حتى تألفت في جامعة كيمردج بانكلترا بعثة علمية لتحقيقها برآسة بعض علماء الفلسفة العقلية فسافروا الى استراليا فظهر لهم بعد البحث الدقيق ان متوسط قوة المشاعر الخمس بين الهمج من سكان تلك البلاد مثل متوسطها بين الاوربيين تقريباً . وانما يمكنهم من رؤية الطريدة عن بُعد شاسع تمرنهم على الصيد

وهناك مقاييس لقياس قوة الذاكرة والانتباه والادراك وغيرها من القوى التي يعدها معظم الناس عقلية . ومقاييس لقياس رد الفعل الذي يطرأ على الجسم من انفعالهِ بالفواعل الخارجية وقياس التعب والارتعاش وغيرها من الانفعالات التي يحسبونها عقلية وجسدية معاً . ولكن الفلسفة العقلية لا تستطيع التمييز في هذه الحالات بين الصفات الموروثة وبين نتائج الاختبار الشخصي . وانما يعلم ان حالة الجسم والعقل الوقتية تؤثر في تلك الصفات

ورب قائل يقول اننا نستطيع تمييز الغريزة عن غيرها حيث نراها والميز لها سيرها على وتيرة واحدة واستقلالها عن سائر قوى الجسم . وهذا القول وهم مستول على الاذهان . فان تصور الغريزة آلة ميكانيكية لا تتحول عن مجراها ولا تتغير انما هو تصور قديم لا يعوّل عليهِ الآن بعدما عُرف ان الغريزة كثيرة الانفعال والاختلاف وانها تنطوي على اعمال عاقلة كالفكر والشعور والارادة

كذلك يعترض معترض ويقول وكيف نستطيع فصل الغريزة عن غيرها للحكم على مظاهرها ؟ نعم انك تستطيع تمييز بعض الاعمال الغريزية التي يعملها الطفل بعيد الولادة كطلب الرضاعة مثلاً اذ لا جدال ان ليس للتربية الام والاختبار دخل هنا . ولكن ما قولك في الغريزة او مجموع الغرائز التي تميز الذكر عن الانثى فانها لا تظهر الاَّ بعد ما يكون الفرد قد بلغ دور التجربة والاختبار

والحقيقة ان العلماء لا يزالون يبحثون هل غرائز الانسان قليلة كما يظهر لنا او ان غرائزه تظهر قليلة لأن فيه الشيء الكثير منها الى حدّ انها دائمة التعارض والتصادم مدى العمر فيفني بعضها بعضاً. وقد أيّد بعضهم المذهب الثاني بقولهِ ان خير مقياس للغرائز هو الانفعالات الفرعية. وان كل عمل من اعمال الغريزة يحتوي على ثلاثة افعال وارد ومتوسط وصادر. فالوارد فكر والصادر ارادة وهما طرفا العمل الغريزي وتراهما يتغيران بزيادة الاختبار. اما الجزء المتوسط الممثل للانفعال فلا يتغير بل يبقى على ما هو تقريباً. اي ان الخوف والتعجب والغضب والمقت والنفور والزهو والخيبة وغيرها من الشهوات او الانفعالات شائعة بين جميع الناس على السواء لتبع فيهم طرقاً معينة وتجري في مجارٍ محدودة قلما تتحرّف عنها

ولو سلمنا جدلاً بصحة هذا الرأي ما وصلنا بهِ الى مقياس للتمييز بين اجناس الناس المختلفة بل ان الناس متساوون تقريباً في العواطف والشهوات حيثما كانوا وجراثيم هذه العواطف مكنونة فيهم ولكن اختلاف العادات وصنوف التربية يقدّم هذه العاطفة ويؤخر تلك فتبين الاولى متجسمة وتتضاءل الثانية

ومن المتناقضات في الظاهر ان الاسود الذي يُظنّ عادة انهُ اكثر انفعالاً من الابيض هو في الحقيقة وواقع الامر اقلّ انفعالاً منهُ كما ظهر من التجارب التي جربتها مس كلر الاميركية في بعض النساء البيض والسود متبعة في ذلك تأثير الانفعالات في التنفس. ومهما يُقَل في قيمة هذه التجارب فمن المؤكد ان العلماء الذين بحثوا في طبائع القبائل الهمجية يميلون الى وصفها بجمود العواطف اذا لم يروها تبلغ منتهى الهوس والطرب في حفلة رقص او غيرها من الحفلات. ولعل السبب فيما يظهر من سرعة انفعال الزنجي هو اعتيادهُ هو وسائر الهمج الذين في درجتهِ ان يعيشوا و يعملوا جماعات فيقتدي بعضهم ببعض

فاذا لم يصح اتخاذ هذا المقياس او ذاك لتمييز الاجناس بعضها عن بعض فما هو معنى ذلك كلهِ؟ هل المعنى ان الناس متساوون او ان في ذلك اشارة ضمنية الى حاجتنا الى نظام دقيق لاصلاح النسل. وجواباً لذلك يقول العارفون ان الجنس او النسل شيءٌ لا يمكننا الآن فصلهُ على حدة لاجتلاء ماهيتهِ وان كنا نعتقد بوجودهِ حقيقة. وانهُ لا بدّ لنا من انتظار اختبار الآراء والمذاهب ونضجها في هذا الباب قبل الاقدام على العمل والتطبيق فان الاغراض والعصبيّة الجنسية على رداءتها لهي افضل من البناء على حقائق عليّة لم تثبت

اما دعوى الذين يدعون ان الجنس شيءٌ ثابت معين الحدود فقد كاد يثبت بطلانها ويحلّ محلها المذهب القائل بقابلية العقل والجسد للانفعال وتطبيق احوالها على الوسط الذي

يكتنفهما . ولكننا لا نعلم علاقة تلك القابلية بالجنس ولا نسبتها اليه . فلعل وراثة العادة والاستعمال ينطبع تأثيرهما في النسل او ان قابلية الانفعال والانطباع تزداد بازدياد التزاوج بين فئات اخلاق المختلفة

واما مسئلة اصلاح النسل (Eugenics) فلا ريب ان هناك « عملية فرز » بين الناس واسعة النطاق متصلة الحلقات حتى في البلاد المتمدنة . فقد ظهر من احصاء ان خمسين طفلاً من كل مئة طفل يولدون في انكلترا لا يعيشون ليتناسلوا وان نصف الذين يعيشون ليتناسلوا — او ربع المجموع — يلدون ثلاثة ارباع الجيل الذي يليهم . وهذا « الفرز » انتخابيٌّ من بعض الوجوه ولكنَّ نتائجهُ لا تزال مجهولة . ولا يعلم هل تفضي الى المناعة من بعض الامراض او القدرة على عيشة قليلة الحركة في المدن . فكيف يمكننا والحالة هذه ان نتخب الصنف الذي يفضل غيرهُ للتناسل ولو حصرنا انتخابنا في بلد واحد . ولا يبعد ان يكون نسل طرفين أُصلح احدهما دون الآخر خسيساً كما يقولون ولكن لا مناص لنا من ذلك ومن بقاء مسئلة الجنس والنسل حيث هي الآن ما لم يصلح الطرفان تماماً . وكذلك لا يبعد ان يكون التزاوج بين الاجناس المختلفة مفضياً الى ازدياد التوالد كما يقول البعض . ولكن اذا كانت نتيجة ذلك التوالد ازدحام هذه الكرة بصنوف واطئة دنيئة فلسنا اقرب مما كنا الى حل هذه المشكلة

الانتخاب الطبيعي

وفلسفة الالمان في الحرب

للالمان ولع شديد بالفلسفة وهي عندهم فن عقلي تهتز به اوتار قلوبهم كما تهتز بالانغام الموسيقية وقد بلغ بعضهم فيها حد الاعجاز فيغلق على القارئ فهم معانيه وادراك مبادئه فيتوهم ان الكاتب في منزلة سامية من المعرفة لا يدركهُ الا الراسخون في العلم . وقد قيل عن احدهم انهُ اذا راجع ما كتب تعذر عليهِ فهمهُ لان الصور الخيالية اذا مازجت الحقائق العلمية شوهتها وافسدت مبادئها ولهذا فانغلاق معانيهم على افهام العامة ناجم من خلط الاوهام بالحقائق ومن توغلهم في عالم الخيال وخوضهم في بحر التخمينات . وفي هذه العجالة لا نتولى البحث في كل مبادئهم الفلسفية لكشف النقاب عن اغلاطهم وشرودهم عن الحقيقة بل نقتصر على نقد فلسفتهم في الحرب بحيث يبين للقارئ شذوذهم العقلي الذي ادّى الى غرورهم واغراق العالم في بحر من الدم طغى عجاجهُ فهدم معالم الانسانية وشوّه محاسن المدنية وحط كثيراً من معالم العلم والادب